الباب التمهيدى
معاجم المصطلحيات فى العربية
(نشأتها وتراثها)

obeikandl.com

الفصل الأول
معاجم المصطلحيات عند العرب
(نشأتها وتاريخ التأليف فيها)

إن مراجعة مؤلفات النظرية اللغوية عند العرب توقفنا على مدى فطنتهم لواحد من أهم أسباب ظهور اللغة الاصطلاحية فى تاريخ العربية وبنية مدونتها اللغوية (lexicon)، ألا وهو السبب الإسلامى الذى عنون له ابن فارس فى كتابه (الصاحبى) فى فقه اللغة بقوله: الأسباب الإسلامية؛ يقول فيه: "كانت العرب فى جاهليتها على إرث آبائهم فى لغاتهم، فلما جاء الله – جل ثناؤه– بالإسلام، نقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر، بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت" [1].

ففى هذا النص الموجز يقرر ابن فارس أن الإسلام هو الذى أحدث هذه النقلة النوعية الجبارة فى تاريخ الألفاظ العربية، وهو المسئول الحقيقى الأول عن الانتقال بكثير من ألفاظ اللغة من مواضع إلى مواضع، على حد تعبير الصاحبى فيما نقل سابقًا.

وإذا كانت مصطلحات علوم، من مثل علم الفقه وعلم أصول الفقه قد نص فى نشأتها على التأثير المباشر للإسلام فى أمر وجودها وقيامتها– فإن ذلك النص والتصريح فى شأن مصطلحات بقية العلوم التى شهدتها منظومة المعارف فى الحضارة العربية، كان حاضرًا لم يغب عن ذهن فقهاء اللغة العربية قديمًا. يقول ابن فارس إن الإسلام أوجد لكل لفظ من الألفاظ التى اعتمدتها العلوم الإسلامية العربية – بجوار معناها اللغوى– معنى آخر أحدثه الإسلام وجاء به، ويمثل على ذلك بألفاظ كثيرة مما انتخبه علم الفقه، منها قوله: "فالوجه فى هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول فى الصلاة اسمان؛ لغوى وشرعى". ويذكر ما كانت العرب تعرفه، ثم ما جاء الإسلام به [2]، ثم يعقب بعد ذلك مباشرة فيقول: "وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم؛ كالنحو والعروض والشعر، كل ذلك له اسمان؛ لغوى وصناعى" [3].

---

(1) الصاحبى (صقر) 78، وانظر: تراث المعاجم الفقهية 13 وما بعدها، والمعاجم الأصولية العربية 17، وما بعدها.
(2) الصاحبى (صقر) 86.
(3) الصاحبى (صقر) 86.

obeikandl.com

وكلمة "الصناعى" هذه التى وردت فى نهاية النقل السابق، هى المعنى المباشر لما يسمى ببنية علم ما. واستخدام لفظ "الصناعى" غير مستغرب من أكثر من جانب، لعل أهمها أنه مصطلح له توهجه فى مصطلحات المعجم، ومن جانب آخر لا يصح أن يراد "بالصناعة" ذلك المعنى الضيق المقصود من هذا اللفظ بصفة عامة فى البلاد الإسلامية، وإنما يقصد بها كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم التى تدخل فى مفهوم الصناعة [1]، وعلى هذا ينبغى أن تحمل هذه اللفظة فى كلام ابن فارس.

استقر إذن القول على أنه لولا الإسلام لما ظهرت منظومة المصطلحات العربية، وهو الأمر الذى يعضده السيوطى عندما ساق ما سبق أن قرره ابن فارس نقلًا عنه، وهو يقرر ما يشبه القانون العام الحاكم فى هذا السياق أنه: "كانت حدثت فى صدر الإسلام أسماء"[2].

ثم يضيف شيئًا آخر عندما يقرر أن أسماء كانت فزالت بزوال معانيها؛ أى أنها لما أبطلها الإسلام صارت بهذه الدلالات المبطلة تاريخًا ميتًا.

كل ذلك الذى يقرره فقهاء العربية من ابن فارس إلى السيوطى مرجع الفضل فيه كامن فى مجيء الإسلام[3].

كان هذا هو الخيط الأول فى التماس نشأة معاجم المصطلحيات العربية وظهورها. وهو صالح فى الوقت نفسه لتفسير ما تراكم من ألفاظ اصطلاحية موروثة؛ أى منحدرة من الثروة اللفظية العربية.

غير أن ثمة طائفة كبيرة من الألفاظ الاصطلاحية- ولاسيما فى بنية العلوم الحكمية المقابلة للعلوم العربية والشرعية- لم تنحدر من الموروث اللفظى العربى، وإنما انحدرت عن طريق الاقتراض، أو الاستعارة من المدونات اللفظية للغات أجنبية أخرى.

وهو الأمر الذى يجرنا إلى الحديث عن أثر احتكاك العربية باللغات الأخرى، ولاسيما بعد نشاط المترجمين.

---

(1) مشكلة الثقافة 88.

(2) المزهر 296/1، وانظر الزينة فى الكلمات الإسلامية، 128.

(3) وهذا الذى يقرره فقهاء العربية القدماء يقرره فقهاؤها ودارسوها المعاصرون. انظر اللغة كائن حى 36، ونحو وعى لغوى 108، والعربية لغة العلوم والتقنية 64، وفقه اللغة للدكتور على عبد الواحد 119، واللسان والإنسان 46، والكلمة دراسة معجمية 117، وتراث المعاجم الفقهية 250، والمعاجم الأصولية فى العربية 257، ودلالة الألفاظ 145، وغيرهم كثيرون.

ويمكن رد الفضل فى ذلك إلى الإسلام، وإن بطريق غير مباشر، يقول الدكتور محمد حسن عبد العزيز فى كتابه: المصطلح العلمى عند العرب: تاريخه/ مصادره/ ونظريته: "وما كاد الإسلام يتجاوز شبه الجزيرة العربية حتى أقام دولة عظيمة مترامية الأطراف، ضمت أممًا وشعوبا شتى، واقتضت سياسته فى الحكم والإدارة، واختلاط العرب بهذه الأمم والشعوب، وتعرفهم على ثقافتها وعلومها– إنشاء علوم لم يعهدوها من قبل" [1]، فنقلوا كثيرًا من هذه العلوم عن طريق الترجمة والتعريب بآلاتها، ألا وهى المصطلحات.

لقد تضافرت النزعتان؛ الداخلية، المتمثلة فيما نقله الإسلام وتطور به من ألفاظ، والخارجية فيما نقله الإسلام واقترضه من علوم الأمم المجاورة. لقد كانت نهضة العرب العلمية إذًا أثرًا من آثار الإسلام، وعلى أية حال، كانت– من ناحية– نهضة علمية لها مقوماتها الذاتية وبواعثها الخاصة، نلمح ذلك فى نشأة ما سماه الخوارزمى علوم الشريعة، وكانت –من ناحية أخرى– أثرًا من آثار الشعوب التى سبقتهم إلى العلوم والصناعات؛ كاليونان والهند والفرس، ونلمح ذلك فى نشأة ما سماه الخوارزمى بعلوم العجم [2].

وهاتان الطريقتان اللتان أمدتا اللغة الاصطلاحية فى العربية بوافر من عطائهما– ظاهرتان فى كلام الخوارزمى الكاتب (ت 378هـ) صاحب أول معجم للمصطلحيات فى تاريخ التأليف المعجمى عند العرب، حيث كانت– كما يقرر فى عبارة واضحة– "أكثر هذه الأوضاع (المصطلحات) أسامى وألقابًا اخترعت، وألفاظًا من كلام العرب أعربت" [3].

وهاتان الطريقتان تتفرعان أو يتفرع بعضهما عن طرق أخرى فرعية، تعمل على إنماء اللغة الاصطلاحية؛ ولذلك فإن تعبير الخوارزمى بالفعل (اخترعت) جاء موفقًا للغاية، ليشمل النقل من دلالة إلى أخرى (shift)، أو نقلًا عن طرق التبديل الوظيفى (conversion)، أو عن طريق الوضع (coinage) بالنحت أو بغيره.

وهذه الطرق الاختراعية أو الاقتراضية هى الطرق التى ينص عليها علماء اللغة فى باب الحديث عن إنماء اللغات لمعاجمها، وهذا الذى نستنبطه من كلام مفاتيح العلوم– يقرره إيفلين هاتش وتشيرلى براون فى كتابهما عن: (الألفاظ والدلالات وتعلم اللغة)، حيث يقولان: إن

(1) المصطلح العلمى عند العرب– تاريخه ومصادره، 48، ولغة العلم فى الإسلام، ص14، والعربية لغة العلم والتكنولوجيا، ص14.

(2) المصطلح العلمى عند العرب– تاريخه ومصادره ونظريته، 48، وانظر: مفاتيح العلوم (فلوتن)، 5.

(3) مفاتيح العلوم (فلوتن)، 5.

توسيع المعاجم والإضافة إلى مادتها اللغوية، يتم عن طريق مجوعة من التقنيات، يمكن إجمالها فيما يلي:

1- الاقتراض اللغوى (Borrowing)، يقول: "إن اللغات كلها تقترض كلمات من لغات أخرى، بعضها من بعض"[1].

2- الوضع (النحت) "coinage"، يقول: "إن كل لغة تملك عددًا من الكلمات لم تأت عن طريق الاقتراض من لغات أخرى، لكنها (أى هذه اللغات) تنمى نفسها، أو ما يمكن أن يسمى بالكلمات الوطنية" [2].

3- النقل أو التحويل (shift).

4- التبديل اللفظى [3] (conversion).

كل هذه التقنيات الأربعة أجملها الخوارزمى فى اثنتين، هما: الاختراع والتعريب، ولا يصح أن يفهم من عبارة الخوارزمى (اخترعت) إلا ما سبق التعبير عنه فى لغة ابن فارس والسيوطى بعبارة (انتقل بها الإسلام)، وهو المفهوم القديم لمصطلح التطور الدلالى فى الدراسات اللسانية المعاصرة (semantic change) [4].

أضف إلى ذلك أن التعبير بلفظ الأوضاع يكاد يتفق تمامًا، أو يرادف المفهوم من لفظ الاصطلاح، وأنه من الظاهر أن هذه الأوضاع أو المواضعات أو الاصطلاحات تتغير بتغير المجال المعرفى الذى ترد فيه.

وهو الأمر الشائع المنتشر فى التعريفات التى دونت لكلمة اصطلاح أو مصطلح فى التراث اللغوى العربى، ولاسيما فى باب المعاجم التى ندرسها هنا، من مثل ما ورد فى التعريفات للجرجانى، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى، والتوقيف للمناوى، والكليات للكفوى، والتعريفات والاصطلاحات لابن كمال باشا، وغيرهم [5] من المعجميين الاصطلاحيين، فضلًا عن المعجميين أصحاب المعاجم اللغوية العامة [6] حتى العصر الحديث.

---

(1) vocabulary, semantics and language education , p 175

(2) Ibid , 175

(3) Ibid, 179

(4) انظر: التطور اللغوى (مظاهره وعلله وقوانينه)، 189، ومعجم المصطلحات اللغوية للبعلبكى، 442.

(5) انظر: التعريفات للجرجانى/ 44، وكشاف اصطلاحات الفنون (مصر) 217/4، والتوقيف (الداية)/ 68، والكليات/ 934، والتعريفات واصطلاحات 9/ب س1-2.

(6) انظر: الوسيط (صلح) 540/1، والمعجم العربى الأساسى/ 744، وعلم المصطلح/ 11، والمصطلحية/ 18،19.

openkandil.com

أمر أخر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يصح أن يفهم من استخدام الخوارزمى للفعلين الماضيين (اخترعت/ وأعربت) أن ما حدث من تطور، أو نقل كان بطريق غير إرادى أو عفوى. بل على العكس من ذلك تمامًا؛ إذ ما أحدثه الإسلام فى أمر إنشائه للمصطلحات قائم على التعمد والقصد والإرادة، لقد كان الإسلام بطوائف علمائه المختلفة المنتمية إلى علوم متعددة أشبه شيء بالمجامع اللغوية أو الهيئات العلمية، التى عمدت وقصدت عند وجودها إلى خلع دلالات جديدة، أو وضعها، أو تعريبها على بعض الألفاظ التى تطلبتها حياة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو علمية جديدة [1].

لقد كانت المصطلحات إذًا حصيلة جهد علمى ضخم سابق، قام به العلماء المسلمون، كل فى تخصصه ومجاله، وبات أمر اتفاق كل طائفة منهم على رموز لغوية يتعاطونها بينهم، ويتواصلون بها فى شرح علومهم، مسألة منطقية لازمة، فنشأت المصطلحات التى صارت أدوات وآلات ومفاتيح لازمة لكل المشتغلين بالعلوم.

وفى ذلك ما يفسر لنا تواتر ظهور كلمات من مثل (مفاتيح، ومقاليد، وكشاف) فى عناوين معاجم المصطلحيات؛ مما يمثل إدراك هؤلاء المعجميين لفكرة الإضاءة التى يقوم بها ويحققها المصطلح.

نشأت العلوم، فظهرت المعاجم الخاصة التى تعرف ألفاظ تلك العلوم، ومن هنا فالقول بوجوب وجود السمات التالية يصبح أمرًا ضروريًّا ولازمًا:

1- ضرورة عدم التباين المصطلحى، بمعنى أنه لا يصح تصور وجود مشترك اصطلاحى على غرار المشترك اللغوى؛ لأن ذلك مفض إلى الخلط والاضطراب المعرفى، وليس لمثل ذلك تسعى العلوم.

وسوف نرى كيف تخلصت معاجم المصطلحيات العربية، وقضت على ما يمكن أن يمثل شيئًا من هذا التباين، عن طريق تحديد المجال المعرفى؛ إما عن طريق التقسيم الحقلى الموضوعى، أو عن طريق النص على المجال المعرفى قبل الشروع فى تعريف مصطلح ما فى الترتيب الهجائى.

وهذا الذى نفترضه من ضرورة أحادية الدلالة فى باب التعامل مع المصطلحات- أمر ثابت أصيل مستقر [2] فى الدرس الدلالى.

---

(1) التطور اللغوى (مظاهره وعلله وقوانينه)/ 189.

(2) علم المصطلح/ 11-12.

2- الدقة والوضوح، وهاتان السمتان تتعلقان بالمصطلح، أيًّا ما كان شكله (مفردًا أو مركبًا)، وبتعريفاته كذلك.

وإذا اتفقنا على أن "هدف المعجم المتخصص هو مساعدة القارئ على معرفة معانى لغة حقل معين من حقول المعرفة ومصطلحاته" [1]- أمكن فهم ضرورة الحرص على السمات المتقدمة.

وإذا اتفقنا على ذلك للمرة الثانية أمكن أن نقرر أن علينا الإقرار بوجود علاقة متشابكة بين ما يعرف بالمفردات العامة (متن اللغة)، والمفردات المتخصصة (المصطلحات) على الأقل فى بابى النقل والوضع [2].

وفى هذا السياق يفهم قول هريبرت بيشت وجنيفر دراسكا فى كتابهما (مقدمة فى المصطلحية): "لأن لغة الأغراض العامة لها كيان مستقل بذاته، أما لغة الأغراض الخاصة فيعتمد وجودها على لغة الأغراض العامة، وتدخل اللغتان فى تفاعل ناشط، ففكرة الصبغ المصطلحى (Terminologzation) لعناصر من لغة الأغراض العامة الذى تكتسب به هذه العناصر مضمونًا خاصًّا جدًّا " [3] هو ما يحدث فى تخليق جانب مهم جدًّا من المصطلحات.

وإذا كان أول معجم من معاجم المصطلحيات العربية يؤرخ لتمامه بوفاة صانعه، وهو الخوارزمى الكاتب 378هـ- فليس معنى ذلك أن العربية لم تعرف اللغة الاصطلاحية أو الخاصة إلا مع نهايات القرن الرابع الهجرى، فذلك ما لا يقول به أحد.

المسألة فى هذا الباب يمكن تصورها فى أن بنية المصطلحات فى العربية- عن طريق ما سبق أن ذكرناه- أخذت فى الظهور مع نزول القرآن الكريم ومجيء التشريعات العلمية، وأخذت تتنامى مع ظهور المدارس العلمية فى القرن الثانى الهجرى، ثم استقرارها ونضجها فى القرن الثالث الهجرى، حتى ظهرت الحاجة إلى تدوين هذه المصطلحات بمعزل عن كتب العلوم المختلفة فى معاجم مفردة لمصطلحات علم بعينه، أو فى معاجم متعددة العلوم- فيما سميناها بمعاجم المصطلحيات- لدرجة يصح معها القول إن المعجم الاصطلاحى كان أداة حضارية مكنت مستعمليها من أداء الكثير من الوظائف[4]، لكن عبر مسيرة طويلة ظهر فيها بالتدرج.

---

(1) علم اللغة وصناعة المعجم/ 46.

(2) انظر: المعاجم عبر الثقافات/ 224.

(3) مقدمة المصطلحية/ 16، وانظر: المصطلحات العلمية فى اللغة العربية للشهابى/ 6.

(4) انظر: المعاجم عبر الثقافات/ 335.

أمر أخير نحب أن نقف أمامه قليلًا، وهو اعتبار كل علم مصطلحًا علويًّا ينضوي أو يندرج تحته كلمات أو مصطلحات أخرى، بمعنى أن مصطلحية النحو يقصد بها مجموعة المصطلحات المنتمية للحقل العلمى (علم النحو)، وأن النحو فى هذا السياق يعد مصطلحًا علويًّا له سلطة حاكمة على مجموع المصطلحات المنضوية، أو المندرجة تحته، المسماة بالمصطلحات النحوية، وذلك أمر مهم للتغلب على بعض الظواهر السلبية التى يمكن أن تكون موجودة فى داخل بنية المصطلحيات المختلفة فى علاقتها بعضها مع بعض[1].

واللجوء إلى ذلك الاعتبار هو ما أشرنا إليه بعبارة ضرورة تحديد المجال المعرفى؛ حتى لا ينشأ اختلاط مفسد ضار بمفاهيم تلك العلوم التى وضعت المصطلحات من أجلها.

وكثير من هذه المسائل المتعلقة بنشأة معاجم المصطلحيات العربية وبوسائلها فى الشرح والتوضيح وبسمات هذه المصطلحات العلمية العربية وبطرق تكونها وعلاقتها بالألفاظ فى متن اللغة العامة– سوف يظهر ويتضح فى تناولها فى قابل الأبواب والفصول.

* * *

(1) المعاجم عبر الثقافات/ 227، وانظر: المعجم العلمى العربى المختص/ 6 وما بعدها، والمعجم العربى الجديد: المقدمة (فصل قضايا الإصلاح ومستلزمات لغة اعلم)/ 103 وما بعدها.

openkandl.com